

وقضى ربك... دراسة الأسلوبية

إيمان محمد أمين خضر الكيلاني*

ملخص

ينتهي هذا البحث إلى حقل الدراسات الأسلوبية التطبيقية، فهو يتخذ من الأسلوبية الأدبية مساراً لرصد الانزياحات الأسلوبية في آيتين من الذكر الحكيم تشكّلان وحدة دلالية موضوعية شبه مستقلة، في محاولة لاستمطار لغة النص من أجل الوصول إلى القيمة الجمالية فيه، وإبراز الإعجاز اللغوي فيه تطبيقاً لا تنظيراً، فهو لا ينطلق من مفاهيم مستقلة جاهزة، وإنما يعتمد على ما تفرغته شبكة العلاقات الرأسية والأفقية فيه.

كما يبرز البحث تطبيقاً جواً ليست بالقليلة من النظرية الدلالية والأسلوبية لدى أجدادنا العرب من بلاعيين ومفسرين، من خلال تحليلهم وتفسيرهم للمظاهر اللغوية في الآيتين موضع الدراسة، فحاول البحث الربط بين تلك الإشارات، ومد الثغرات التي لم يلتفتوا إليها لصياغة رؤية نقدية متكاملة تسمى إلى ترسيخ فكرة النقد العلمي الكاشف الذي لا يستغنى بالمقابل عن شوق النص مستنداً إلى الحس النبوي، واستكناه ما فيه من خصوصية دلالية وما يتركب عليها من خصوصية جمالية تسلم إلى تفرّد النص القرآني بما فيه من أحكام صارم ودقيق في نسجه، شكلاً ومضموناً.

ومن هنا جاء البحث جواباً للسؤال عن علة استعمال لفظة دون غيرها، أو تركيب دون آخر، أو صيغة دون أخرى، كما لفتت إلى العروف وبدائلها، وإلى الضمائر وعوائلها، والصيغ وما يقابلها، وما ترتب على ذلك من إشارة إلى قيمة دلالية خاصة لا تتم إلا بها. كما سعى البحث إلى المقارنة والمقارنة بين الآيتين الكريميتين وبغية الآيات التي تشترك معها في الموضوع وتتشابه معها في التركيب والتكوين الصرفي والمعجمي؛ وذلك من أجل استكشاف السمة الأسلوبية التي تجمعها وتتحوّل نحو العادة في الاستعمال القرآني.

الكلمات الدالة: الأسلوبية، العلاقات الأفقية، العلاقات الرأسية.

تمهيد

لم يتميز العالم اللغوي دي سوسير بقدرته على الإتيان بمفولات لغوية لم تكن معروفة قبله، بل تميز بقدرته على الربط بين تلك المعارف والمفولات، وجمعها في جمل عامة شكّلت نظرية متكاملة، كما حسمت قضايا لغوية عالقة بدا بعضها نقياً للآخر أحياناً، وأظهرت الخصوصية الخاصة للغة التي هي اجتماعية من جهة غير أنها سيميولوجية من جهة أخرى، فهي ليست كأي ظاهرة اجتماعية. كما أوضح أن اللغة زمنية تطويرية، وبالمقابل تزامنية، فحل تلك الحيرة لدى علماء اللغة في أيهما الصواب، الوصفية، أم التاريخية، فوضع المنهجين معاً وجهين لعملة واحدة، فحقيقة اللغة أنها عريقة قديمة قدم الإنسان، وفي الوقت نفسه هي بنت عصرها، إنها حديثة جديدة؛ لذا كانت اللغة تقبل المنهجين، فكلاهما يقابل الآخر ويكمله، وكأنه يريد أن يقول للباحثين:

* اسم اللغة العربية، الجامعة الهاشمية، الزرقاء، الأردن. تاريخ استلام البحث 2008/4/1، وتاريخ قبوله 2008/11/25.

هذا منهج، وهذا منهج، ولك أن تختار أيهما شئت.

كما نبه الأذهان في التقابل الثالث إلى العلاقات الرأسية للغة مقابل ما هو مألوف فيها من العلاقات الأفقية، فأخذ النقاد يحاولون استكناه تلك العلاقات المتداخلة في النص.

- أما التقابل الرابع بين مفهومي اللغة والكلام فقد شكّلا ثورة على ما هو مألوف لدى سابقيه من النظر إليهما على أنهما مترادفان، منطلقاً من الفكرة الأساسية في نظريته وهي اجتماعية اللغة؛ لتكون اللغة ملك المجتمع عامة، ويكون الكلام مخزون الفرد الخاص من اللغة.

إن التقابلات الأساسية الأربعة لدى دي سوسير⁽¹⁾ ليست بتقابلات تتناقض كما هو ظاهر الأمر، بل تقابلات تكامل.

إنها تقابلات تعكس طبيعة اللغة التي تحمل الشيء وضده في تكاملية عجيبة، يجعلها ظاهرة فريدة، فقد وضع الحقيقة مقابل الحقيقة، في جمل شكّلت مفاتيح لأفكار ونظريات نقدية كثيرة، وثوابت أساسية في علم اللغة، وكانت تحتمل غير معنى فأوحت لدراسي اللغة والنقد بروى جديدة يجمعها شيء واحد هو النحو باللغة والنقد نحواً علمياً حقيقياً.

إن المقولة نفسها - أحياناً - قامت عليها نظريتان مختلفتان